تجديد الخطاب الديني و آفاق الحوار مع الغرب

Renewing religion discourse and prospects for dialogue with the west

آمال منصور

جامعة محمد خيضر- بسكرة، a.mansour@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2021/10/30 تاريخ القبول: 2021/12/28 تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص:

تعالج هذه الدراسة واقع صراع الحضارات أو صدام الأديان في العالم الرّاهن، حيث يتم تحويل الإسلام إلى طرف مهم في النزاع بين الشرق والغرب، و يصبح تجديد الخطاب الديني ضرورة مهمة من أجل ردم الهوة بين الشرق والغرب، كما تتعرض الدراسة لمشروع "محمد أركون" بالنقد والتحليل.

كلمات مفتاحية: الخطاب الديني؛ الشرق ؛ الغرب؛ المركزية الغربية

Abstract:

This study deals with of the clash of civilizations or the clash of religions in the current world where islam is transformed into a important party in the conflict between east and west, them renewing religious discourse becomes an important necessity in order to bridge the gap between east and west ; and this study also deals with the « MOHAMED ARKOUN » project , with criticism and analysis.

Keywords: religious discourse ; East; West;western central.

المؤلف المرسل: الاسم الكامل، **الإيميل**a.mansour @ univ-biskra.dz

1. مقدمة:

يقول تعالى في محكم تنزيله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(13) الحجرات

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (82) المائدة

يرسم الإسلام في تشريعه الكريم علاقة المسلمين بغيرهم فهي قائمة على التعايش والتسامح ونشر قيم المحبة والسلام في كل مكان وكل زمان، وسيرة الرسول (ص) تثبت ذلك، فقد صبر على أذى المشركين لتعزيز هذه القيم وزرعها في نفوس المؤمنين على مدى العصور.

لكن يشاء صراع الحضارات أو صدام الأديان في العالم الراهن أن يحول من الإسلام مرادفا للعنف والإرهاب والتطرف، فيتم ربطه بحركات تعمدت الإسراف في تأويل الخطاب الديني، لصالح أهداف خفية أو معلنة.

كما أن قوى العولمة الثقافية–حاليا– لعبت دورا هاما في تغييب الحقيقة وطمسها، فعملت على تهميش ثقافات وأديان على حساب ثقافات وأديان أخرى، فمعيار القوة والنفوذ هو المحرك الأساسي في هذه اللعبة، لذلك تم تعميم النموذج الأمريكي، وصارت الحضارة الإسلامية كلها وثقافات الشعوب الضعيفة اقتصاديا وسياسيا كلها في مهب الريح.

في ظل هذه النظرة أصبح تجديد الخطاب الديني الإسلامي ضرورة ملحة مثلما أثبت ذلك: محمد أركون، أبو القاسم حاج حمد، نصر حامد أبو زيد..في أطروحاتهم. فهل يتمكن تجديد الخطاب الديني من ردم الهوة بين الشرق والغرب؟ أم أن الصراع والصدام قد صار متجذرا لدرجة أنه لا يمكن إزاحته؟ أو لأن المركزية الغربية تأبى ذلك؟

2– منهج الدراسة:

تعتمد هذه الدراسة على المنهج التاريخي في عرض جميع الأطروحات الخاصة بالخطاب الديني و أيضا ما يتعلق بأطروحة صراع الشرق و الغرب، كما تستثمر آليات المثاقفة في فهم أبجديات تمركز القوى في العالم

الراهن، و تتضمّن الدراسة دعوة إلى تغيير المنهج المتبع في دراسة الخطابات الدينية و استثمار آليات النقد الثقافي والتأويل.

3– النتائج:

توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها:

– ضرورة إعادة قراءة الخطابات الدينية بما يتناسب مع مناهج الدراسة في العصر الراهن.

– إخضاع النصوص الدينية للتأويليات المعاصرة و التداوليات و توظيف العلوم اللغوية في قراءة جميع المتون.

– بناء حوار حقيقي مع الغرب لتجاوز الصراع الراهن.

4 –المركزية الغربية و صورة الإسلام في مخيال الآخر:

قطعت الذهنية الغربية في طريقها لصنع مركزيتها العالمية أشواطا طويلة، منذ عصر النهضة الأوروبية حتّى اليوم، حيث كان التقدم العلمي والتكنولوجي مفتاحها للدخول إلى فردوس الهيمنة العالمية، بينما كان العالم العربي الإسلامي يتراجع حضاريا وسياسيا و علميا... و يستسلم يوما بعد يوم لعصر جديد، تنازل فيه عن حقه في السيادة العالمية.

ومع تسارع وتيرة التطوير العلمي والبرمجي، ودعمها للقوة العسكرية والاستراتيجية أصبح الغرب قوة منتجة للمعرفة والحقيقة، ومصدر إبداع للقيم، بينما الآخر صار عالة على العالم بل مجرد مختبر لتجاربها.

وفي ظل هذا الوضع تشكلت ثنائية أساسية هي المركز/الهامش ولدت ثنائيات أخرى تشبهها وهي: المتقدم/المتخلف، المتحضر/الهمجي، .....

وبذلك أصبح« الشرق العربي/الإسلامي أشبه بمكان متخيل، لا ينوجد فيه إلا ماهو غريب ومثير، بدا الشرق وكأنّه موطن السحر والخرافة، ومكان ألف ليلة وليلة وعلاء الدين والمصباح السحري » (ابراهيم، 2004، ص 598)

إن إفراط الغرب في إدراك ذكائه ومركزيته حول ذاته جعله يقزم الآخر حتّى قال "هيجل":« إن الشرقيين لم يتوصلوا إلى معرفة أن الروح، أداة الإنسان بما هو إنسان، حرة، ونظرا إلى أنهم لم يعرفوا ذلك، فإنهم لم يكونوا أحرارا، وكل ما عرفوه هو أن شخصا معينا هو حر، و لكن على هذا الاعتبار نفسه، فإنّ حرية ذلك الشخص الواحد لم تكن سوى نزوة شخصية وشراسة، وانفعال متهور وحشي أو ترويضي

واعتدال للرغبات، لا يكون هو ذاته سوى عرض من أعراض الطبيعة، أي مجرد نزوة كالنزوة السابقة، ومن ثمّ هذا الشخص الواحد ليس إلاّ طاغية، لا إنسانا حرا، ولم يظهر الوعي بالحرية لأول مرة، إلاّ عند اليونان، ومن ثم فقد كانوا أحرارا »(هيجل، 1974، ص 85)

فهيجل بهذه الطريقة يجعل من الشرقيين ليسوا أهلا لإدراك حرية الروح، بل لم يتم إدراك قيم الحرية عند البشرية إلاّ مع الذهنية اليونانية.

يعكس هذا القول الاعتزاز بالفكر الأوروبي، وإنكار قيم الحضارة على غيره، مثلما يقول المفكر "مكسيم رودنسون":« إنّ تشجيع التمركز حول الذات هي من طبيعة الأوروبيين. كانت موجودة دائما، لكنها اتخذت الآن صبغة تتسم بالازدراء الواضح للآخرين... وخصوصا في ظل الامبريالية منذ منتصف القرن التاسع عشر »(عمارة، 2009، ص18)

لقد تمّ تعزيز هذه الروح الغربية وإشباعها بقيم تقزيم الآخر وتهميشه، حتى صنعت وهما جديدا يسمى **"العولمة"**، فبينما كانت تنادي ظاهريا بتوحيد العالم في ظل النظام العالمي الجديد، كانت في الحقيقة تصنع من الغرب نموذجا عالميا بامتياز، مع اختزال الشرق إلى مجرد صورة، صورة مشوهة يكتنز داخلها الوحشية والتعصب والتخلف والإرهاب والعنف.

في ظل هذه المعطيات لم تكن العلاقات بين الشرق والغرب لتكون بخير، فالشرق أصبح يحس بدونيته وتهميشه، وأيضا أصبح مسرحا لتجاربها العلمية والنووية. ومصدرا لمواردها المادية لتنفيذ مخططاتها.. فالغرب بحكم هذا الوضع في تسارع دائم نحو السيطرة والقوة، والشرق يسير بخطى ثابتة نحو الضعف وتدني مستوى الحياة، فكيف يمكن للتسامح أن يكون ؟ وكيف يمكن للسلام أن يعم؟

لم يكتف خطاب المركزية الغربية بوضع الشرق على المحك، بل أيضا دين الشرق، فلم تصبح المواجهة بين قضيتين متوازيتين غرب/شرق، بل بين الغرب والإسلام.

و هكذا بدأت معركة لا تنتهي، تغذيها أفكار و قيم مغلوطة، و صار التمييز فيها بين الديني واللاديني شبه مستحيل .. و دخلت اللعبة أطرافا تستفيد ماديا من إشعال بؤر الصراع، و تمّ دعم ثورات مشبوهة بحجة الدفاع عن الدين ودخل العالم الإسلامي دائرة من العماء المعرفي والديني... لا تنتهي.

5- تجديد الخطاب الديني بين الوهم و الواقع:

تأسس النص الديني باعتباره نصا يرصد الحقيقة، نص يبحث في حقيقة الإنسان والكون والأشياء، فكان نصا شاملا جامعا لعلوم الحياة، ففيه الحقائق الجيولوجية، البيولوجية، الطبية، الأخلاق، المعاملات، العبادات.

لقد كان نصا يستجيب لاحتياجات الإنسان باعتباره نصا يشرح طبيعة علاقة الإنسان بالله والكون والآخر، ويمنح الذّات مزيدا من الثقة في هذا العالم المليء بالألغاز والأسئلة.

ولما كان النص الديني نصا موسوعيا بامتياز، فهو بالتالي نص إشكالي، بقدر ما يجيب على خواطر الإنسان وأسئلته، بقدر ما يترك الباب مشرعا لملايين الأسئلة.

يعني هذا أنه نص حمّال أوجه، وقابل للتأويل، لأننا إذا آمنا بأحادية المعنى فيه جعلنا منه نصا مغلقا، لا يحقق مقولة: "عالمية النص الديني وصلاحيته لكل زمان ومكان".

إنّ مشروعية التأويل وإعادة القراءة في النص الديني، تحقق النص الديني هدفه ومبتغاه من حيث أنه نص يقدم رؤية جذرية وشاملة للحياة، "رؤية تتسع باتساع لغته" مثلما يقول **نصر حامد أبو زيد**.

لذلك تعددت وجهات النظر إليه، منذ زمن الوحي، من اتجاه نقلي، واتجاه عقلي، واتجاه المتصوفة، في محاولة لإضاءة جميع جوانبه وتحقيق لعالميته.

فقراءة النص الديني بروح العصر من شأنها ان تساعد المؤمنين بهذا النص على تحيين رؤاهم للعالم والإنسان والأشياء، والدعوة إلى تجديد الخطاب الديني هي دعوة لنقد العقل الديني ، ولا تختلف بالمرة عن أي دعوة أخرى تنادي بنقد العقل السياسي..أو غيره.

6-محمد **أركون و أطروحة الإسلامية التطبيقية:**

يدخل "أركون" معترك الأسئلة ويفتح بوابة صعبة في الجدل حول إمكانية تأسيس نقاش مختلف يضع النص الديني مادة له.

يظهر أركون في المشهد الفكري المعاصر معلنا بداية عصر جديد للمثقف، حيث يضطلع بدور ريادي في قراءة الراهن حيث يقوم بتفكيك الظاهرة الدينية بمنهج علمي صارم.

فالمكانة التي يحتلها الدين –في نظر أركون– في المجتمعات الإسلامية و العربية المعاصرة هي من الهول والضخامة إلى درجة أنه يمكننا اعتبارها بمثابة المسألة الأولى والأساسية التي ينبغي على المثقف أن يهتم

لها(..) ومن الواضح أكثر أن الظاهرة الدينية، بشكل عام، تظل حتى الآن شيئا لا مفكرا فيه داخل الفكر العربي والإسلامي (أركون، 2007، ص 18).

فأركون من خلال مشروعه الفكري "الإسلاميات التطبيقية" يريد إعادة بناء فكر التحليل الديني بعيدا عن الأوهام التقليدية، التي تجعل من الفكر العربي الإسلامي بطلا، فعليه الآن أن يستغل العلوم الحديثة لبناء تصور جديد للعالم والأشياء.

« إذا ، يتوقف التحرير على أساس القراءة النقدية الواعية بتحديثات العصر التي يواجهها الفكر العربي، فإمّا أن تندمج في الحضارة الكونية، تحررا وحوارا، أو أن نبقي الصراع قائما بين الحضارات، وهذا ليس في صالح أحد (بارة، 2008، ص 320)»

يغدو النص الديني عنده ممارسة خطابية Discursive Pratique، خاضعة لآليات التأويل القائمة على التفكيك Déconstruction، ممارسة إستلهمها أركون من فلاسفة الحداثة وما بعد الحداثة الأروبية ولم يجد أي حرج في التعامل مع هذه الآلية. بل يصر على إعمالها ويدعونا لأجل فهم النص الديني من خلالها لأنها الضامن الوحيد للفهم الموضوعي المنفلت من قبضة الإسلاميات الكلاسيكية الإستشراقية Orientalisme التي تحاول حرمان العقل الإسلامي من قراءة النص القرآني وهو يشحد مناهجه من العلوم الإنسانية الغربية المنبع (بودومة، 2000، ص 20).

يدعو أركون بشكل واضح لتجاوز دوغمائية الفكر الأصولية، وذلك لن يكون إلا بتحرير النصوص من التفاسير التراثية، والاعتماد على مناهج الحداثة في قراءة النصوص.

يتم إخضاع النصوص لما يسمى بالتأويليات المعاصرة، وهي منهج خلق من أجل النصوص المقدسة، حيث يتم توظيف العلوم اللغوية والتداوليات لقراءة النصوص وإعادة فهمها..فالتفاسير المعتمدة في المعترك الديني الإسلامي تحديدا تشوبها مغالطات كثيرة ، فيبقى النص القرآني ثابتا لا جدال فيه، لكن ما يفسره وكل ما يحوم حوله قابل لإعادة القراءة.

كما ينتقد أركون منهجية الاستشراق الكلاسيكي من خلال أحد رموزه الكبرى: المؤرخ كلود كاهين.ويدعو إلى تفكيك الخطاب التقليدي، والخطاب الاستشراقي عن التراث الإسلامي في آن معا.

تندرج أعمال أركون في إطار ما يمكن أن نسميه بلغة عبد الكبير الخطيبي بـ "النقد المزدوج. فهو لا يفكك أقانيم الفكر الإسلامي وأساطيره ومواقع السلطة فيه ولكنه يعمد أيضا إلى تفكيك النظرة المركزية الغربية إلى الثقافة الإسلامية. في "الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد" يكتب أركون مفككا الخطاب الغربي

حول الإسلام قائلا: "مهما يكن من أمر، فإنه لم يعد مقبولا حصر الإسلام كله فقط في تجلياته الأصولية أو المتزمتة أو الحركية الإسلاموية كما هو شائع جدا في الغرب

يتقاطع فكر التجديد عند أركون مع مفكرين آخرين في الساحة الثقافية العربية مثل : نصر حامد أبو زيد، حسن حنفي، أبو القاسم حاج حمد..لكن كل دعوة أخذت مسارا مختلفا ومضمونا مغايرا.

7- مقاربات نصر حامد أبو زيد في تجديد الخطاب الديني:

يقتحم نصر حامد أبو زيد الخطابات و في يديه عصا التأويل السحرية التي بها يفجر المعاني الباطنة للنصوص، فيصبح النص الديني نصا قابلا للتأويل و إعادة القراءة مثل أي نص آخر، فيعيد النظر فيما يسمّى في التفسير بالتفسير المأثور و التفسير بالرأي، و يتوصل إلى صياغة سؤال مركزي مهم: (كيف يمكن الوصول إلى المعنى الموضوعي للنص القرآني؟ و هل في طاقة البشر بمحدوديتهم ونقصهم الوصول إلى "القصد" الإلهي في كماله و إطلاقه؟) (أبو زيد، 2008، ص 15)

قدم "نصر حامد أبو زيد" قائمة طويلة من الأعمال بدأت بدراسة حول قضية المجاز في القرآن، ثم دراسات أخرى تناقش إمكانية تأويل النص القرآني، و أخرى حول شيخ المتصوفة "ابن عربي" و كتاب آخر مهم حول "مفهوم النص"، حيث انطلق "أبو زيد" في مجمل أعماله من أن النص القرآني نص لغوي، يمكن أن تطبق عليه جميع المناهج النقدية الحداثية التي تطبق على النصوص الإنسانية، و بذلك يكون قد استبعد إلهية النص القرآني و حجته في ذلك:« أن النص منذ لحظة نزوله الأولى-أي مع قراءة النبي محمد –صلى الله عليه و سلم له لحظة الوحي- تحول من كونه(نصّا إلهيا) و صار فهما (نصا إنسانيا) لأنّه تحوّل من التنزيل إلى التأويل. (أبو زيد، 1994، ص 126)

لعلّ هذه الرؤية في ظاهرها تبدو علمية إلى حد بعيد، إلاّ أنها ولدت عدة نتائج خطيرة في فكر "أبو زيد"، منها: أن أي قراءة مهما كان نوعها مثل: القراءة الأصولية...أو غيرها تكون صحيحة، كما أن التحرر من سلطة النص التي رددها أبو زيد كثيرا في مؤلفاته جعلت النص الإلهي يتساوى مع أي نص آخر.

في الحقيقة أن هذه النظرة جعلت "أبو زيد" يقع في وهم كبير هو قدرة المناهج المعاصرة على تفكيك غموض النص، معتقدا أن البعد اللغوي للنص كاف لكشف مغالقه، و هذه نظرة اختزالية تهمل الجوانب الأخرى التي يتمتع بها النص القرآني.

لقد جعل نصر حامد أبو زيد الجامعة المصرية تثور ضدّه و تتهمه بالتكفير و الإلحاد، و تحرمه من نيل درجة الأستاذية، فهوسه المعرفي و اهتمامه بالفكر الهرمنيوطيقي الألماني جعله يعتقد بإمكانية تجديد الخطاب الديني و إصلاح الهوة العميقة بين الأنا و الآخر.

8.خاتمة:

رغم الجهود التي قدمها أركون في إطار بناء توجه لإعادة بناء الذهنية العربية الإسلامية، إلا أن لم يتوصل إلى خلق قراءة خاصة به للتراث الديني، وبقيت كلها مجرد دعاوى نظرية تفتقد إلى التطبيق والإجراء، حتى بدت كأنها وهم من أوهام المثقفين الحداثيين العرب.

فإعادة قراءة الخطاب الديني من شأنها إعادة بناء علاقتنا بأنفسنا ثم مع الآخر، علاقة يجب أن يقودها الفكر العقلاني المنهجي وليس النظرة العشوائية الهمجية المبنية على عصبية جمعية أو احساس بالنقص. فلو نجحت هذه النظرة وأخذت طريقها في الانتشار والوعي لكانت خطوة مهمة إلى الأمام ..نحو التقدم والرقي الفكري.

صحيح أن الصراع مع الغرب طويل وعميق ومتجذر..لا تمحوه المبادرات الفردية..لكنه صراع يحتاج إلى الثقة بالذات أولا والتخلص من مركب النقص ثانيا..ثم تأطير حوار حقيقي هدفه امتصاص الرواسب الدفينة ومعالجة كل صور التمييز والتعصب..ونقل الصورة المثالية للإسلام..فهو رسالتنا الأبدية.

قائمة المراجع:

1. (بلا تاريخ). تم الاسترداد من https://ar.qantara.de/content/mhmd-rkwn-wtjdyd-lfkr-lslmy-rkwntsy
2. . تاريخ الاسترداد 19 12, 2018، من iea.org: ./https://www.iea.org/topics/renewables
3. رشيد بوطيب. (بلا تاريخ). *أركون تأسيس لفكر إنسانوي عربي يحترم روحانية الدين* . تاريخ الاسترداد 15 07, 2020، من https://ar.qantara.de/content/mhmd-rkwn-wtjdyd-lfkr-lslmy-rkwntsy
4. عبد الغني بارة. (2008). *الهرمنيوطيقا و الفلسفة، نحو مشروع عقل تأويلي* (الإصدار ط1). بيروت: الدار العربية للعلوم/ناشرون.
5. عبد القادر بودومة. (2000). *النص وآليات القراءة محمد أركون، نصر حامد أبوزيد،*. المجلة الجزائرية في الأنثربوبوجيا و العلوم الإنسانية.
6. عبد الله ابراهيم. (2004). *المطابقة و الاختلاف (بحث في نقد المركزيات الثقافية)*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر.
7. نصر حامد أبو زيد. (2008). *إشكاليات القراءة و آليات التأويل (المجلد ط8). المغرب: المركز الثقافي العربي.*
8. نصر حامد أبو زيد. (1994). *نقد الخطاب الديني (المجلد ط2). القاهرة: مكتبة مدبولي.*
9. محمد أركون. (2007). *الفكر الإسلامي: نقد و اجتهاد* (الإصدار ط4). بيروت: دار الساقي.
10. محمد عمارة. (2009). *بين العالمية الإسلامية و العولمة الغربية* (الإصدار ط1). القاهرة: مكتبة الإمام البخاري للنشر.
11. هيجل. (1974). *محاضرات في فلسفة التاريخ،*. (ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المترجمون) القاهرة: دار الثقافة.